العرب
الأحد 2021/05/23
السنة 43 العدد 12067

على غرار الطيور والحيوانات.. الإنسان يمكنه أن يستشعر الكوارث

ماهر عبدالمحسن
كاتب مصري

التوقع ممكن دائما (لوحة للفنان رفيق السركي)

بالرغم من أن الكوارث تنصبّ على رؤوس ضحاياها فجأة، ودون سابق إنذار، إلا أن الإحساس بالكوارث والأزمات قبل وقوعها أو بعد وقوعها بقليل أمر يثبته العلم ويؤكده الواقع. فمن المعروف أن الطيور وبعض الحيوانات، مثل الكلاب، تشعر بالزلازل قبل وقوعها. كما يمكن لهيئات الأرصاد الجوية أن تتنبأ بأحوال الطقس، خاصة الأحوال المتقلبة التي تنذر بهطول أمطار غزيرة، أو هبوب عواصف رعدية مدمرة. ويمكن للإنسان الذي يشتم رائحة غاز منتشر أو شياط يعبّق المكان أن يتوقع حدوث حرائق، هذا بالإضافة إلى أجراس الإنذار الموضوعة في ناطحات السحاب ومقار العمل، التي تمكّن الإنسان من توقع الكارثة والاستعداد لها.

يحدث الشيء نفسه على مستوى الأفراد، فيمكن للشخص الذاهب إلى عمله أن يقرأ أحوال الطقس من خلال النظر إلى السماء من نافذة المنزل. كما يمكن للشخص الذي تعرض للسرقة أو النصب أن يشعر بالحادثة أثناء وقوعها أو بعدها بقليل، نفسياً أو من خلال بعض الشواهد المادية التي يدركها بحواسه.

لكنّ السؤال الذي يفرض نفسه هو لماذا يقع الإنسان في الكارثة دون أن يتوقع حدوثها بالرغم من شواهدها الكثيرة؟

الأسباب التي تؤثر بالسلب على حواس الإنسان هي الاعتياد وعدم الاستعمال وسيكولوجية الجماهير، إضافة إلى تزييف الوعي

لماذا لا يلتفت إلى الرائحة التي تنذر بالحريق، وإلى السحب الداكنة التي تنذر بالمطر؟ لماذا لا يكتشف سرقة حافظته، أو وقوعه ضحية عملية نصب، إلا بعد الرجوع إلى المنزل خلال ساعات، وربما أيام؟

إن أهمية هذه التساؤلات تتضح أكثر عندما تتعلق بظواهر تاريخية أو سياسية، كأن يتم اكتشاف جاسوس كان يعمل لسنوات ضد مصلحة البلاد، أو أن يكتشف شعب كامل أنه كان ضحية مؤامرة كبرى تُحاك ضده منذ سنوات بعيدة. ويحق لنا أن نتساءل: كيف صحا العرب، ذات يوم، فجأة على هزيمة 1948؟ كيف صحا المصريون على هزيمة 1967؟ كيف صحوا، بنفس الشعور بالمفاجأة، على كارثة سد النهضة؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات تستلزم البحث في سيكولوجية الشعور بالخطر. فالإنسان، ككائن حي، لديه قدرات مماثلة لقدرات الطيور والحيوانات التي تستشعر الكوارث، غير أن "الشوشرة" على الملكات الإدراكية المسؤولة عن الشعور بالخطر من شأنها أن تُضعف هذه الملكات، بل بإمكانها أن تقضي عليها كليةً.

والأسباب التي تؤثر بالسلب على حواس الإنسان، الحسية وفوق الحسية، كثيرة؛ منها "عدم الاستعمال" وفقا لنظرية لامارك في التطور، فالعضو الذي لا يُستخدم لفترات طويلة يفقد القدرة على أداء وظيفته. ينطبق الشيء نفسه على الملكات فوق الحسية التي تُعرف بالحاسة السادسة، والتي كان يتمتّع بها الإنسان البدائي الذي كان يعيش وسط المخاطر في الغابات والكهوف، وجاءت المدنية لتقضي على هذا الشعور بالخطر نتيجة لاختراع شعور بديل بالأمان، جاء مع اختراع الحياة المنظمة ونشوء فكرة الدولة.

والسبب الثاني هو "الاعتياد"، فإلف المخاطر والتعود عليها يجعلانك تفقد الشعور بها، كأن تعمل في مصنع للغاز، مثلاً، أو في إطفاء الحرائق، أو تجلس طويلاً في مكان يتسرب فيه الغاز، أو يتردد فيه صراخ الجيران طوال الوقت. والأغرب من ذلك هو إلف صوت أجهزة الإنذار. وفي هذا الصدد حكى لي أحد الأصدقاء أنه عمل، في أحد الأيام، في مبنى يضع أجهزة إنذار الحريق، وكانت هذه الأجهزة تدق أجراسها على مدار اليوم دون وقوع أي خطر، وعندما حدث أن اشتعلت إحدى الحجرات ودق جرس الإنذار بقوة لم يتحرك أحد من مكانه إلا بعد أن اشتم رائحة الدخان وشاهد ألسنة النيران بعينيه.

السبب الثالث هو "العقل الجمعي" أو "سيكولوجية الجماهير"، ففي إحدى التجارب العلمية جلس أشخاص في حجرة يستمعون إلى محاضرة، وبينما كانوا منهمكين بدأ يتسرب إلى الحجرة دخان كثيف، ولأن التجربة كان متفقاً عليها من قبل فقد تعمّد الحاضرون عدم التحرك بالرغم من وضوح الدخان الذي ملأ الحجرة، الأمر الذي منع الشخص الوحيد الذي لم يكن يعلم بحقيقة التجربة من التحرك كذلك!

ويتضح من هذه الحالة أن الإحساس بالخطر يرتبط بشعور الآخرين. فالإنسان، على ما يبدو، لا يصدق مشاعره إذا لم تجد دعماً أو تأييداً من مشاعر الآخرين.

السبب الرابع يتعلق بـ"تزييف الوعي"، وهي مسألة ترتبط بالماضي (تزييف التاريخ) وبالحاضر (الخطاب الإعلامي المؤدلج). فالتدخل في الأحداث التاريخية بالحذف والإضافة والتعديل من أجل خلق بطولات وهمية من شأنه إحداث نوع من التخدير، أشبه بالتنويم المغناطيسي، للوعي الجمعي بحيث تركن الجموع إلى أمجاد غابرة لم تخضع للفحص والتمحيص. كما أن اللعب بأحداث الحاضر، عن طريق خلق واقع وهمي، من قبل إعلام السلطة من شأنه أن يؤدي إلى نوع من "غسل المخ" الذي يؤدي بدوره إلى الاستكانة والخنوع والتلقي السلبي لطوفان الأكاذيب الذي يغمر كل شيء، ومن ثم غياب التفكير النقدي على كافة الأصعدة.

والغريب أن خلق الوهم وتصدير الأكاذيب هما من أهم السمات البارزة لعمليات النصب التي يتعرض لها الأشخاص على المستوى الفردي، وهي نفسها التي تتعرض لها الشعوب، وكأن السياسة نوع من النصب. تؤكد ذلك إستراتيجية الوعود البرّاقة أو المتاجرة بالأحلام التي يستخدمها كل من النصابين والناخبين لاستمالة ضحاياهم بالطريقة ذاتها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن الخروج من هذا النفق المظلم؟ كيف يمكن الإفلات من دوامة الوهم والأكاذيب التي تطوق الشعوب بسياج من حديد؟

تاريخياً عرف العرب في الجاهلية فكرة "التطير"، وهي ترتبط بالتشاؤم من سماع أو رؤية بعض الطيور مثل البومة أو الغراب. وترجع كلمة "التطير" إلى عادة كان يقوم بها العربي في الجاهلية عندما يهم بعمل شيء، فيهيج الطيور التي في بيته، فإذا طار الطائر جهة اليمين استبشر خيراً ومضى في مسألته، وإن طار جهة اليسار فهذا علامة على الشر فامتنع عن القيام بما عزم عليه. وقد حرّم الإسلام التطير، ودعا الرسول (ص) إلى التفاؤل.

وحديثاً لم يختف التشاؤم وظل التطير موجوداً، لكن بصور مختلفة، مثل التشاؤم من القطة السوداء، ومن الرقم 13 حتى أن بعض الفنادق الكبرى لا تستخدم هذا الرقم في ترتيب غرفها، وبعض ناطحات السحاب لا تستخدمه في ترقيم طوابقها في أميركا.

والحقيقة أن التشاؤم لا يعتبر شكلاً من أشكال التنبؤ أو الشعور بالكارثة، لأنه لا يستند إلى أي أساس علمي، وهو بهذا المعنى يكون، في الغالب، شعوراً زائفاً، خلوا من الحقيقة، ولا يتطابق مع الواقع إلا عن طريق المصادفة البحتة.

والشيء نفسه يمكن أن يُقال عن تفسير الظواهر الكارثية بإرجاعها إلى فكرة الحسد، أو توقع الكارثة عند الشعور بالحسد. كما أن العمل على تجنب الكوارث بمحاولة تفادي الوقوع في شرك العيون الحاسدة، سواء بالفرار من مجال رؤيتها أو بتقديم معلومات مغلوطة عن حياتنا للشخص الحاسد، لن يجدي في تفسير الظواهر السلبية التي وقعت، أو التنبؤ بتلك التي على وشك الوقوع، لأن الحسد يستند إلى أساس ديني يحتمل التأويل، كما أنه قد ينجح في توقع الكوارث الفردية إلا أنه يعجز عن توقّع الكوارث الطبيعية أو السياسية الكبرى مثل الحروب مثلاً.

«اللايقين» بوصلة الطريق في عالم اليوم

الحسين أخدوش
كاتب ومترجم مغربي

يفيد اليقين التأكيد التام والكامل على صحة شيء ما. إنّه الشعور بالاقتناع التام الذي ينتاب المرء بواقع حقيقة ما، أو حقيقة فكرة معيّنة، أو عند قول شيء يقيني. إنّه حقيقة رأي ليس لدينا شك فيه: حقائق مؤكدة لا مجرّد فرضيات. أمّا اللايقين فيحيل في علم القياس على الارتياب الذي يحصل عند تشتت القيم المنسوبة إلى مقياس معيّن. إنّه مجال للقيم المحتملة التي لا يمكن أن تقبل قيمة دائمة مستمرّة.

لقد جعل هذا الأمر مبدأ اللايقين، أو مبدأ الارتياب (بالإنجليزية Uncertainty Principle)، من أهم المبادئ العلمية في نظرية الكم، بعد أن صاغه العالم الألماني فرنر هايزنبرج عام 1927. ينصّ هذا المبدأ على أنه لا يمكن تحديد خاصيتين مقاستين من خواص جملة كمية إلا ضمن حدود معينة من الدقة، أي أن تحديد إحدى الخاصيتين بدقة متناهية يستتبع عدم تأكد كبير في قياس الخاصية الأخرى، ويشيع تطبيق هذا المبدأ بكثرة على خاصيتي تحديد الموضع والسرعة لجسيم أولي. فهذا المبدأ معناه أن الإنسان ليس قادرا على معرفة كل شيء بدقة متناهية. كما أنّه لا يمكنه قياس كل شيء بدقة، وإنما هناك قدر لا يعرفه ولا يستطيع قياسه.

بعد تشكله في دائرة الفيزياء المعاصرة تسرّب هذا المفهوم إلى المجتمع والسياسة والاقتصاد المعاصر، فأصبح اللايقين أكثر العبارات تداولا في علم اليوم، حيث تحوّل إلى نموذج تفسيري، وإلى براديغم إرشادي جديد للقطاعات القيمية والإنسانية والثقافية. لم تكن دلالة اللايقين تثير هذه الحالة من الهلع فيما مضى، ولا حتّى مشاكل معرفية في الماضي، عدا كونها تحيل على الموقف السلبي من المعرفة. لكنّ اللايقين الآن تحوّل ليسم راهننا، بل أصبح هو الذي يغذي وضعنا البشري المعاصر بالمزيد من الإحساس بالتيه والضياع.

فالظاهر من المستجدات الكثيرة التي طالت عمراننا أنّنا فعلا غدونا ننظر إلى الأشياء على أنّها غير محدّدة كفاية، بل مموّهة ومجهولة لنا قياسا بمساحات الشك الشاسعة التي طالت كلّ شيء تقريبا. إنّه نوع من عدم اليقين في كل شيء، فقط حالة النقص والحاجة ما يتسيّد العالم والحياة، فبقايا الماضي لم تعد مقنعة، وقيمنا الإنسانية سرعان ما تحوّلت إلى ما يشبه ميوعة سائلة.

لقد غيّرت الجائحة ما تبقى من آمال معلّقة على هذه العولمة الاقتصادية، كما سلّط الوباء الضوء على عدم اليقين من السياسة والعلم والطب والمعرفة والقوى والحياة برمّتها. فجأة أصبح كلّ شيء تقريبًا -من القرارات اليومية الدقيقة إلى السياسات العامّة للدول- محفوفًا بعدم اليقين. والظاهر أنّ هذا الوضع ليس واقعا جديدا، بل سيرورة انتهت إلى ما نراه الآن من سيولة الخوف وطغيان الشرّ، بل وانتصار البلاهة وعودة الجهل المقدّس لتقديم الدروس عمّا يلزم للمزيد من التحطيم والهدم.

ليست حالة التفكّك هذه وليدة الصدفة، وإنّما هي نتيجة تسيّد طغيان الاستهلاك، وانتشار اللامبالاة بالأنظمة الإيكولوجية الطبيعية التي طالها التغيير السلبي، نتيجة التدمير المستمر للرأسمالية المتوحشة. والآن يظهر أنّه من المستحيل البحث في مكان آخر للهروب، كما كشف عن ذلك وباء كوفيد – 19؛ لذا أصبح الإحساس بعدم اليقين هو النصيب العادل الذي عمّمته الجائحة الحالية.

وفي هذا الإطار اقترح الفيلسوف دوريان أستور التفكير حول حالة اللايقين العامة التي بدأت ترخي بثقلها على القلوب والعقول. فالوضع الراهن يشي بأنّ التأمل العميق قد أصبح لا غنى عنه لمواجهة اللايقين المعاصر. إنّ شغف اللايقين ليس بأيّ حال من الأحوال مسألة عقل خالص، ذلك أن مسألة اليقين وعدم اليقين هي فوق كل شيء مسألة غريزة وعاطفة وجدانية؛ إنّها متعلّقة في المقام الأول بالمعتقدات والقناعات قبل أن تكون مرتبطة باستنباط الاستدلال والاستنتاجات والحجج.

عدم اليقين إذن له علاقة بالإحساس بالخوف، في حين يلزم أن يظلّ اليقين تغلبا بيّنا على هذا الخوف، وكذا الجهل والبلاهة. لقد نسي الناس، حسب اعتقاد بليز باسكال أنّ ما يجعل الترفيه ضروريًا كونه ينسينا ويحوّلنا من الاضطرار إلى التفكير في حياتنا الخاصة؛ وذلك كي لا نضطر إلى التفكير في موتنا ونهايتنا.

اللايقين أكثر العبارات تداولا اليوم إذ تحوّل إلى نموذج تفسيري وبراديغم إرشادي جديد للقطاعات القيمية والإنسانية والثقافية

لكن لمّا منعت الجائحة الكثير من الناس مغادرة بيوتهم صارت العودة إلى الذات أمرًا أصعب من أن يحتمل، وبخاصّة لأولئك الذين لم يتعوّدوا نمط حياة التفكير والتأمل الذاتي. نتيجة لذلك تسلل إلى الجميع الشعور بعدم الاستقرار وهشاشة الحياة، وعاش أغلب الناس ضيق الإقامة، فخافوا من اللايقين الذي نجم عن قلق الوجود وضجر الملل.

تجعلنا هذه الأزمة نعيش ما سبق أن وصفه بليز باسكال بالوضع الهشّ للإنسان، أي ذلك الوضع البشري القاصر الناجم عن العزلة والضعف. فالخوف من اللايقين ومن الغرف المنعزلة يفرضه ضعف تحمّل البشر لأنفسهم ووهنهم وهشاشة وجودهم. لذلك ليس بالأمر الغريب أن يعيش الناس حياتهم لحظة بلحظة، حيث ينتقلون من تحفيز إلى آخر بحثا عن المعنى في مجرى اليومي. لكن ما يتغافل عنه هؤلاء هو أن جوهر حياتهم يكمن في الدينامية التي تحدثها الجدلية بين سعيهم وراء المعنى وعبثية الأشياء. وفي ظلّ هذه الجدلية تستمر الحياة دون أن تضمن السعادة لأحد، وبذلك يبقى القلق ملازمًا لها، حتى وإنّ تجاهله الإنسان نتيجة الانغماس والبحث الدؤوب عن المسرّات.

البيّن ممّا سبق أنّنا دخلنا بالكثير من الضجيج دينامية التغيير العميق للغاية. لكن ما الدرس المستفاد من كل هذا الذي يقع الآن؟ لقد كشفت جائحة كوفيد – 19 عن هشاشة وضعنا البشري الراهن، كما بيّنت حاجتنا الملحّة إلى ضرورة فعل شيء من أجل المناخ. فكما يقول دومينيك بورغ "عندما نكون أمام ظاهرة من مستوى مختلف، أي أمام خسائر من مستوى مختلف، تنهار كل تدابيرنا المعتمدة على التقنيات. والمواجهة لا تتم إلا بشكل جزئي؛ والطريقة الوحيدة لمواجهة هذا الواقع هي العودة إلى الأساسيات، وإلى السلوكيات اليومية. لا يتم التقليل من انبعاثاتنا على المستوى العالمي بالتقنيات، بل بالسلوكيات. هذا هو الدرس المستفاد" (دومينيك بورغ، "أزمة كورونا مؤشر على بداية انهيار الحضارة الصناعية"، ترجمة أحمد رباص).

يبدو الوضع البشري الراهن متوتّرا بل يزداد تعقيدًا أكثر من ذي قبل؛ فالمسرح العالمي الآن منغمس في تحول لا ينتهي، وهو التحوّل الذي يمنعنا، في الكثير من الأحيان، من فهم معنى النظام الدولي الحالي. بالتالي، فإن فقدان العلامات المرجعية للتقييم يثير شعورًا خاصًا، يمكن تلخيصه في صيغة إيليا بريغوجين الحائزة على جائزة نوبل في الكيمياء، عندما قالت "اليقين الوحيد الذي يمكن أن يتمتع به المرء، هو أننا نعيش في عالم من اللايقين".

ص10 تنشر كاملة على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

العودة إلى الذات باتت أمرًا أصعب من أن يحتمل (لوحة للفنان فؤاد حمدي)